نقد عالمية الحضارة الغربية عند مالك بن نبي

أ. بن قويدر عاشور
جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

الملخص:

حاول مالك بن نبي إصلاح الأمة الإسلامية وتغيير أوضاعها من الضعف إلى القوة ، مما جعله يؤكد على ضـــرورة أن يتحلى المسلم بثقافة تمكنه من تفعيل الحوار الحضاري الإنساني، باعتبار أن الثقافة شرط للرؤية الحضارية العالمية، خاصـــة وأن بعض الحضارات وصلت إلى مستوى العالمية مثل الحضارة الغربية المعاصرة. إن عالمية الحضارة الغربية، من منظور مالك بن نبي، تعتبر موضوعا جديرا بالدراسة من طرف المسلم إذا أراد أن يستفيد من معرفة نقائصها وفضائلها؛ حيث أن هذا الإشـــعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة حضارة الغرب، هو الذي يجعل – حسب مالك بن نبي – من فوضاه الحالية مشـــكلة عالميـــة يجب تشريحها وتفهمها في إطار علاقتها بالمشكلة الإنسانية في العصر الحالي بصفة عامة، وبالمشكلة الإسلامية بصفة خاصـــة. ومنه يمكن التساؤل كما يلي: كيف كانت نظرة مالك بن نبي النقدية لعالمية الحضارة الغربية؟

الكلمات المفتاحية: الحضارة الغربية _ الإنسان المسلم _ عالمية الحضارة _ النقد.

Abstract :

The Algerian thinker and philosopher, Malek Ben Nabi has called for reform to the Islamic Nation in order to improve ils delicate situation from weak to strong. Considering culture as a vital factor for a universel civilized vision, such as the case of western civilization, Malek Ben Nabi emphasizes the need for a culture that would nulture and activate a humanitarian civilized dialogue. From this perspective, he considers the universality of the Western Civilization as a worthy matter to be highly regarded by muslims so that they can benefit from its advantages as well as its shortcomings. For Malek Ben Nabi, this universel luminous state that Western Civilization enjoys, makes from its current chaos an Universal havoc which needs to be strutinized and understood in relation to the current universal issue in general and the Islamic issue in particular. From this stand, we may raise the following question which will be discussed throughout this paper: How was Malek Ben Nabi critical view towards the Universalirty of the Western Civilization?

Key Words : The western civilization _ The Muslim _ The Universel Civilization _ The Critic.

إن العمل الذي نحاول تقديمه، نعتبره إسهاما في مجال الحوار الحضاري، ذلك لأنه يمثل رؤيـــة مفكـــر مســـلم معاصر للحضارة الغربية ولعالميتها، ويكشف موقفا متميزا يلقي الضوء على بعض جوانب الحضارة الغربية، خاصـــة وأن العالم الغربي يرى أن حضارته إنسانية بديلة عن الحضارات الإنسانية الأخرى بما تمثله مـــن قـــيم ســـليمة، قـــيم حضارية مبنية على العدالة والمساواة والأخوة والمحبة، لا مجال فيها لتسلط الإنسان على إنسان آخر، حضـــارة تمثـــل الملاذ الآمن للبشرية جمعاء. إننا نعيش منذ نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، تحولات عميقة تطـــرأ يوميا على عالمنا، وهزات عنيفة تغير خريطة العالم، كما ظهرت تطورات جديدة ومتناقضة لمصير الإنسانية، وحاولت الحضارة الغربية الهيمنة على العالم معلنة نهاية التاريخ كما يقول المفكر الأمريكي" فوكوياما " والتـــي تعنـــي ســـيادة الديمقراطية الليبرالية كنظام بديل ووحيد. وهكذا وجد إنسان هذا العصر نفسه يواجه محاولة الهيمنة الغربية تحت ظـــل قوة أحادية هي القوة الأمريكية، وتحت شعار انصهار كل الحضارات في الغرب المنتصر المسيطر.

إن إعادة الاستقرار وتحقيق السعادة والتعاون والابتعاد عن الصراع، كان محور أبحاث الكثير من الفلاسفة والمفكرين منذ القدم، وخاصة لدى فلاسفة الحضارة في القرون الأخيرة والقرن العشرين بالأخص؛ ومن هؤلاء نجد المفكر الجزائري مالك بن نبي، الذي انتبه إلى مشكلات الإنسان المعاصر أي مشكلة الحضارة في نهاية الأمر، وحاول من خلال مؤلفاته كلها من نهاية أربعينيات القرن العشرين إلى سبعينياته أن يجد الحلول المناسبة لها، وفي خضم محاولاته والحلول التي اقترحها، نلاحظ تميزه عن بقية فلاسفة الحضارة المعاصرين، ليس فقط بالأفكار والنظريات التي اقترحها كحلول، وإنما تميزه بالمصطلحات الفلسفية الجديدة التي أبدعها أيضا، منها مصطلح " القابلية للاستعمار" و"إنسان ما بعد الموحدين" وغيرها؛ ومن خلال هذا نحاول أن نركز على مصطلح أو فكرة رأينا أهميتها البارزة وخصوصيتها في الحل الذي اقترحه مالك بن نبي لمشكلة الحضارة أو لمشكلة الإنسان المعاصر، وهي فكرة " العالمية " عموما، وفكرة "عالمية الحضارة الغربية" خصوصا.

لقد درس مالك بن نبي الحضارة الغربية وخصائصها بعمق، وحاول الوصول إلى الحقائق الموضوعية التي يسير وفقها منطق التاريخ، الذي صار من أهم ميزاته في أواخر القرن العشرين أن الإنسانية موحدة في مصيرها، ومتشابكة في علاقاتها. مما حتم عليه الغوص في عمق الظاهرة الحضارية في حركتها عبر التاريخ، دون إقصاء الأبعاد المختلفة المتشابكة لها؛ فانطلق من استقراء الواقع الاجتماعي والتاريخي للإنسان(الغربي والشرقي)، وهنا سنركز على وقوف مالك بن نبي على عالمية الحضارة الغربية من خلال محاولة التعرض إلى ايجابياتها وسلبياتها، ومنه ففيم يتمثل نقد مالك ابن نبي لعالمية الحضارة الغربية ؟ ما هي ايجابياتها ؟ وما هي سلبياتها ؟ وقبل ذلك ما معنى مصطلح العالمية؟

مفهوم العالمية:

أ- **المفهوم اللغوي**: إن مصطلح العالمية حديث في اللغة العربية ووجوده كمصطلح نادر في مختلف القواميس والمعاجم العربية. إن أصل هذا المصطلح أوروبي، وهو متداول في الغرب بشكل جلي وواضح في القرون الثلاثة الماضية. ومع هذا، فإننا نجد مرادفات عدة لـ" العالمية " مثل " الشمولية والكوكبية والأممية والكلية...إلخ"، في اللغة العربية. كما نجد في القرآن الكريم كلمة تقترب من معنى العالمية وهي " العالمين" ويفسر ابن كثير الآية 46 من سورة البقرة: « يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين » قائلا أنهم فضلوا على سائر الأمم، وأن العالمين عالم يشمل من وجد قبلهم وعالم يشمل من بعدهم أي جميع الأمم وجميع الناس. (1) وبالرغم من عدم وجود كلمة" العالمية " في التراث ألمفاهيمي العربي الإسلامي، إلا أنه وجد رأي مستخلص من بحوث المستشرقين وبحوث العرب والمسلمين، مفاده أن نسبة "الأمي" للنبي لا تعني أنه لم يكن يقرأ أو يكتب، بل نسبة إلى الأمة، ومنه يكون معنى النبي الأمي أنه "أممي" وهذا تأكيد على عالمية رسالة النبي (ص)، ويرجح هذا التفسير لمعنى كلمة أمة وأمي أنه يعني إلى حد كبير ما تعنيه لغويا لفظة العالمية حاليا(2). ذلك أن صحيفة يثرب مثلا ضمت تصريحا للحقوق والواجبات لجميع سكانها مسلمين وغيرهم . كما أن الرسول (ص) بعث رسلا إلى زعماء الدول العظمى آنذاك مثل الفرس والروم ومن هذا نخلص إلى أن هناك أصولا في اللغة العربية لكلمة العالمية رغم عدم تطور هذا المصطلح.

أما مصطلح العالمية في اللغات الأخرى خاصة في الفرنسية والانجليزية من حيث الاشتقاق، فيرجع إلى كلمة universel و universal أو من كلمة univers بمعنى العالم أو الكون. ويؤول لفظ العالمية إلى لفظ mondialisme و universalisme بالفرنسية، و mondialism بالانجليزية، أو الكوكبية globalisation بالفرنسية و globalization بالانجليزية. إننا نجد من بين معاني العالمية le mondialisme الانفتاح على الإنسانية وعلى ثقافات العالم ورفض الانغلاق والمحلية والخصوصية، أي الميل إلى المواطن العالمي كما يذكر مالك بن نبي، لكن هذا الانفتاح على العالم

والإنسانية ونبذ الخصوصية، لا يعني تجاهل الحق في الاستقلالية والتميز مع الحرص على الانتماء إلى عالم واحد، كما لا تعني الخصوصية التطرف في الانغلاق على ما هو محلي وكراهية ما هو أجنبي ومن ثم الوقوع في التعصب.

أ- **المفهوم الاصطلاحي** : لا يوجد تعريف واحد لفكرة العالمية بل هناك تعاريف عديدة يصعب فيها أحيانا الوصول إلى جوانب مشتركة بينها، وذلك نظرا لكون المفاهيم مرتبطة بثقافات وحضارات عالمية كثيرة ومتنوعة ومختلفة، بل ومتناقضة أحيانا. ولهذا نحاول أن نركز على بعض المفاهيم قصد إيجاد المشترك العام بينها، وفي هذا الإطار يقول منير شفيق : «هناك من المفاهيم حول العالمية والخصوصية بقدر ما هنالك من أديان وفلسفات ونظريات سياسية وأنظمة حكم، مما يستحق القيام بدراسة مدققة شاملة تلخص كل هذه الثورة من المفاهيم، ولربما أمكن الخروج باستخلاصات بما هو عام فيما بينها».(3)

ومن أهم تعاريف العالمية نذكر كذلك تعريف المفكر الفرنسي برتراند بادي Bertrand badie الذي يقول: « العالمية l'universalisation كمفهوم يفرض نفسه في علاقة وطيدة جدا بمفهوم العولمة la mondialisation (..) وهي- أي العالمية – تصف قدرة بعض المبادئ أو بعض القيم، وبعض القواعد على السمو فوق التاريخ الخاص، (..) فتزدهر بشكل متشابه في جميع السياقات الاجتماعية. وهي تفترض في نفس الوقت – أن العولمة لا تستطيع أن تتحقق بدون أن يحصل حد أدنى من التقاطع بين مختلف الأوضاع الاجتماعية – السياسية ... أي أنه إذا كانت العولمة مفهوما سوسيولوجيا فإن العالمية ترتبط بالايدولوجيا، أو على الأقل بتاريخ الأفكار التي تفترض – على أي حال مسبقا – إصدار حكم على الموضوعات الاجتماعية، وتزعم أن بعضا منها تسلم بوجود مميزات عابرة للثقافات، وهي على هذا الأساس ذات صلة بالنظرة السائدة عن المجتمع الحديث، الذي يعتبر في كنف الارتقائية، يصبح بناء مجتمع حديث كنهاية للتاريخ وعولمة للتقدم، مبدلا التقاليد الخاصة بوضع تكون فيه العالمية قائمة على العقل والعلم».(4)

كما نجد الفيلسوف الأمريكي ريشار رورتي richard rorty (*) يعرف العالمية قائلا : « العالمية الأخلاقية تطرح فكرة اكتشاف سمات مشتركة بين كل البشر كبديهية كافية لتفسير لماذا؟ وربما كيف ينبغي أن ينظم أنفسهم كمجموعة عالمية (كوسموبوليتية). إنها تقترح إذا أساسا علميا وميتافيزيقيا للسياسة العالمية. أما العالمية الفلسفية: فتقول بوجوب سمات مشتركة لكل الإنسانية مما يدل على وجود هدف مشترك؛ وتؤكد أن شكل مجموعة بشرية مثالية يمكن أن يتحدد بالرجوع إلى عالمية الطبيعة البشرية. (..) إن التساؤل عن من نحن ؟ تساؤل عن هويتنا الجماعية، أي المشروع الذي يجمعنا، إنه تساؤل سياسي يحيل على هوية أخلاقية ومشروع عمل. في الغرب هذا التساؤل مرتبط بالعالمية وهي : الكليات التي تميز البشر، والتي تكفي لتأسيس مشروع جماعي. هذه النقطة هي التي وجهت مشروع عصر النهضة وبررت تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية ومؤخرا جدا مشروع الأمم المتحدة».(5)

وإذا أردنا التعليق على التعريفين السابقين، يمكن القول أنهما تعريفان وإن اختلفا فهما مترابطان ومتكاملان، حيث نجد التعريف الأول يركز على الجوانب الفلسفية والإيديولوجية والاجتماعية والتاريخية للعولمة ويقابلها بمفهوم العولمة. كما نجد أن التعريف الثاني يربط العالمية بقيم وخواص الطبيعة البشرية.

ضرورة معرفة إيجابيات وسلبيات عالمية الحضارة الغربية: بعدما توصل مالك بن نبي من خلال دراسته لفوضى العالم الإسلامي، عند النتيجة التالية: إنّ اضطراب الفكر الإسلامي فرض عليه الوقوف وقفة وسطية بين استحالة الرجوع إلى الوراء أي إلى مرحلة ما بعد الموحدين، والسير إلى الأمام سيراً أعمى في حركة نحو الغرب؛ حاول أن يدرس فوضى العالم الغربي للوصول إلى نتيجة تمكّن الإنسان المسلم من فهم هذا العالم فيحسن الاستفادة منه، حيث أن العالم الإسلامي إذا أدرك أنّ : « صدق الظواهر الأوربية مسألة نسبية، فسيكون من السّهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيها، كما سيتعرف على عظمتها الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات مع هذا العالم الغربي أعظم خصباً، لتظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بمنوال تنسج عليه فكرها ونشاطها»[6]، حيث أن هذا الإشعاع العالمي الشامل الذي تتمتع به ثقافة الغرب، هو

الذي يجعل من فوضاه الحالية مشكلة عالمية، يجب تشريحها و تفهمها في إطار علاقتها بالمشكلة الإنسانية بصفة عامة، وبالمشكلة الإسلامية بصفة خاصة. إنّ هذا التحليل والتشريح هو الذي يتيح للمسلم بالضرورة الوقوف عند نظام أوربا باعتباره إنساناً وليس مستعمِراً، وهكذا تنشأ حالة من التقدير والاحترام المتبادل، بل حالة من التعاون والمحبة والمشاركة. كما أن هذا التحليل والتشريح هو الذي يكشف ويؤكد لنا ظاهرة عالمية الحضارة الغربية – كما يذكر بن نبي – في جذورها التاريخية وواقعها الحالي، وما أضافته من إنجازات إلى التراث الإنساني، وما أحدثته من فوضى في العالم[1].

أولا: إيجابيات عالمية الحضارة الغربية.

يمكن ملاحظة مظاهر الهيمنة الغربية على العالم في هذا الإطار، من خلال انتشار منتوجاتها المتنوعة في كل ميدان وفي كل بقاع العالم. ومن هنا تعتبر الحضارة الغربية عالمية، خاصة وأنها استطاعت توحيد المشكلة الإنسانية، حيث أن العبقرية الغربية تمكنت من تحقيق « هذا التوحيد حين أوصلت مقدرة الإنسان إلى المستوى العالمي، وهو يتجلى في حياة كل شعب وفي تشكيلاته السياسية، وفي ألوان نشاطه العقلي والفني والاجتماعي، فالمقاييس وطرائق السلوك والتفكير لا تكف عن التقارب على محور طنجة – جاكرتا، ومحور واشنطن – موسكو» (7). وهكذا سادت مفاهيم الغرب ونظرياته المختلفة في شتى مجالات المعرفة والعلم والسياسة والاقتصاد وغيرها، ويمكن القول أن هذا الانتشار يعتبر هيمنة للحضارة الغربية ومثالاً لغيرها من الحضارات والشعوب – كما يؤكده بن نبي-، كما يمكن القول أنّ الحضارة الغربية قرّبت المسافات بين مختلف أجناس الإنسانية ووحدت مشاكلها وآمالها وطموحاتها، حتى أصبح المصير الإنساني واحداً، بل إن الوعي الفردي والاجتماعي أصبح واسعاً أكثر مما كان عليه من قبل، حيث أصبح مرتبطا بهموم الإنسانية جمعاء. كما نشير أيضا إلى أن من صور تلك العالمية، تبني معظم شعوب العالم أنظمة أنماط الحياة التي أبدعها الغرب، مع انتشار النموذج الاستهلاكي الغربي، بالإضافة إلى انتشار الإنتاج الصناعي والتكنولوجي الغربي في العالم كله ، بل في كل بيت في العالم وليس في كل مجتمع فقط « فالعالم أخذ يتأمرك»(8)، حيث أصبح هذا التحول واضحاً في كل المجالات سواء في متابعة الأفلام السينمائية الأمريكية، أو في الحياة الاستهلاكية مع بروز ظاهرة الأكل السريع مع اختيار أكلة الهمبورغر أو استهلاك مشروب البيبسي كولا أو الكولا كولا؛ وارتداء الجينز وغيره من الألبسة الغربية؛ أو في مجال الفكر أين نلاحظ فرض الحضارة الغربية لنفسها على معظم الشعوب، حيث سادت مفاهيم الغرب ونظرياته في العلم والمعرفة وفي السياسة والاقتصاد ....الخ.

إن هذا الانتشار« قد ينظر إليه باعتباره نوعاً من هيمنة الحضارة الغربية، وهذا صحيح. غير أن ابن نبي ، بالإضافة إلى تأكيده على الطابع الذي تتميز به الحضارة الغربية من محاولة تصدير نموذجها وجعله مرجعاً ومثالاً، فإنه ينظر إلى الموضوع من زاويته الاجتماعية (السوسيولوجية) التاريخية، إذ أن الإنسانية مع الحضارة الغربية اقتربت بينها المسافات، وتوحدت مشاكلها وآمالها، بشكل جعل المصير الإنساني مشتركاً وموحداً، ولا يمكن لبلد أن يبني مشروعا اجتماعيا أو التفكير في تغيير حضاري، دون الأخذ بالحسبان العامل الخارجي، أي الإنساني » (9). ومن هنا يشير بن نبي أيضا إلى مسألة أخرى تتمثل في وعي الفرد والجماعة الذي تحوّل و توسع، فبعدما كان في دائرة المجتمع الضيق أصبح مرتبطاً بدوائر إنسانية أوسع، بل أصبح مهتماً بكل المشاكل الإنسانية. وهكذا ندرك أن المبررات « التي جعلت ابن نبي "رحمه الله " يؤمن بعالمية الحضارة الغربية، هي مبررات واقعية من منظور اجتماعي يرصد الظاهرة في حركتها وتأثيرها في التاريخ .. ولعل من المبررات التي جعلته يتبنى هذا التحليل السوسيولوجي عدة مظاهر تدعو إلى

[1] فيلسوف أمريكي أستاذ بقسم الإنسانيات في جامعة فرجينيا مؤلف عدة كتب منها الإنسان المرآوي 1990.

النظر إلى الحضارة الغربية من زاوية حضورها العالمي ...»[10]، تلك المظاهر التي أشرنا إليها سابقا مثل انتشار النموذج الاستهلاكي الغربي، وانتشار المنتوجات الغربية الصناعية والتكنولوجية في جميع أصقاع العالم ...إلخ.

ثانيا: سلبيات عالمية الحضارة الغربية.

إنّ استفادة الكثير من الشعوب من بعض مظاهر عالمية الحضارة الغربية، لا يجعلنا نتناسى أو نغفل بعض المظاهر السيئة أو الشريرة لعالمية هذه الحضارة. وأبرز تلك المظاهر السيئة يتمثل في الاستعمار الغربي، الذي شمل كل شعوب المعمورة خاصة الضعيفة منها أو المسالمة خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين إلى اليوم أي بداية القرن الواحد والعشرين (إحتلال العراق وأفغانستان...). إنّ ظاهرة الاستعمار الغربي كانت غزواً للبلدان والشعوب من أجل توفير مصادر الطاقة، وتوفير المناجم والأسواق، كما كانت انسحابا وابتعادا عن الجوانب الروحية والإنسانية، وجشعاً من الإنسان الغربي عموماً والأوربي خصوصاً، و بهذا انهارت القيم الاجتماعية مع طغيان قانون الغاب أو قانون القوة، الذي لا يقيم وزناً لإنسانية الإنسان مادامت الغريزة المادية والكمية هي التي تتحكم وتسود، وفي هذا يقول مالك بن نبي :« إنّ أوربة حققت المعجزات في عالم الاكتشافات وعالم العلوم .. ولكنها فقدت في أعماق نفسها البعد الذي كان يروّح عليها ويرفّه عنها، ويسندها في وقت المحن لأنه يربطها بوجود الله... فحضارة القرن العشرين أفقدت أو أتلفت قداسة الوجود في النفوس وفي الثقافة وفي الضمائر، لقد أتلفت القداسة لأنها اعتبرتها شيئا تافهاً لا حاجة لنا به »[11].

فأوربا نجحت ونجاحها « قد يفسر لنا اليوم على المدى البعيد فشلها في الاستمرار. لقد نجحت في إخضاع كل شيء لمقاييس الكم، ولكن نجاحها يفسر من ثمّ الأزمة التي تمر بها حضارتها التي فقدت كل مبررات وجودها لأنها أفقدت الوجود قداسته. كان الوجود مقدساً في تفاصيله، في حياة الحشرات ... في حياة الإنسان .. حتى الأشياء، كان المارُّ في الشارع إذا التقى بفتات الخبز ينحني ويلتقط هذه الفتات ثمّ يقبلها، ويضعها في مكان طاهر لأنّه كان يشعر بقداسة هذه الأشياء. أما الأوروبي فلا يهمه هذا ولا يلتفت إليه لأن هذه الفتات من الخبز، لا قيمة لها في نظره الكمي، إذ لا ثمن لها، لذا تلقى مع الأشياء الأخرى في سلة المهملات. وتركت أوروبا في سلة المهملات كل قداسة الأشياء، وكل القيم المقدسة، وفي آخر المطاف دار عليها صولجان علمها وطغيانها العقلي... أوروبة اليوم لا تتنفس التنفس الطليق، بل تتنفس تحت ضغط عالم الأشياء المتراكمة. إذ بقدر ما تراكمت الأشياء، وبقدر ما تراكمت الإمكانيات الحضارية اضمحلت القاعدة الأخلاقية الروحية المعنوية التي تتحمل في كل مجتمع عبء الأثقال الاجتماعية والأثقال المادية »[12] ومن هنا نتصور ونفهم موقف الأوروبي إزاء الإنسانية بصفة عامة، حيث أنه « في حالة انفصال عنها، منعزل عنها، ملتفت عنها كأنّه ليس منها، بل يتربص بها الدوائر، كي يجعل منها "حاجة " يملكها، و"شيئا" يغتصبه، عندما تدق ساعة الفتوحات الاستعمارية. وتصاغ للتعبير عن هذا الانفصال الكلي الكلمات المناسبة: فكل ما ليس بأوربي فهو "الأهلي المتوحش"، ولا يخرج عن هذه القاعدة أحد في أوروبا، حتى ماركس... ولكن مثل هذه الأحكام لا تخضع للمنطق حتى عند ماركس، لأنه لا يحكم هنا بما يمليه العقل... ولكن بما يمليه الوسط والثقافة. الواقع .. أن صورة " الشرق" في الذهن الغربي تتجلى من خلال عاطفة متعالية ومطلقة، تعبّر عن شعور الغرب نحو نفسه ونحو الآخرين .. هذا التعالي المطلق ليس ... واقعاً خاصّاً بطبقة معيّنة، إذ أن الفرد الأوروبي يحمل جراثيم هذه الكبرياء دائما لأنه يتلقاه من الجو الأمومي الذي ينشأ فيه منذ الطفولة، ويتكون فيه تصور للعالم وللإنسانية، فهو يعتقد على وجه الخصوص، أن التاريخ والحضارة يبتدئان من أثينا، ويمران على روما، ثم يختفيان فجأة من الوجود لمدة ألف سنة، ثمّ يظهران من جديد بباريس في حركة النهضة ... أما قبل أثينا فليس شيء يذكر في ذهن هذا الفرد المشحون بالكبرياء ... الذي لا يرى بين

أرسطو وديكارت إلاّ الفراغ ... إنّ هذه النظرة الخاصة للغربيين هي التي تشوّه منذ اللحظة الأولى فلسفة الإنسان عندهم، وتشوّه بالتالي السياسة الغربية » [13].

إنّ هذه الصورة البشعة التي مورس في إطارها الإستعمار الغربي، هي التي جعلت المستعمر يظهر في صورة المستهتر الجشع والمتسلط والعنصري، وهي التي جعلته يحدّد الخطط اللازمة لتزوير الحقائق التاريخية المتعلقة بالبلدان والشعوب المستعمرة ، ولجعل القواعد والأسس الصحيحة لها مجرد أمور شاذة، حيث حاول مثلا أن يجعل الأخلاق « تخلّف عن ركب المدينة، والدين رجعية تعيق تقدم العلوم والصناعات، وهكذا دواليك يستمر في تزوير المفاهيم، ومن ثم يحاول استنادا إلى هذه الشواذات التي وضعها هو، أن يضع قواعد جديدة تناسب مصالحه، وتحقق أطماعه، تمهيداً لربط كل شيء بالموقف الاستعماري» [14]. ومن أمثلة ذلك مصطلح " السيادة المشتركة " الذي يعني تعاون المستعمَر مع المستعمِر من أجل تطوير البلد المستعمَر، وهو أمر مغالط ومزور ومخادع بكل وضوح، الهدف منه استغباء المستعمَر لنهب مختلف خيراته وثرواته؛ ومن الطبيعي أن يصد المستعمِر على إتباع كل الأساليب والوسائل والخطط للوصول إلى غاياته، لكن من غير الطبيعي أن ينساق وراء هذا السراب والخداع والشعار الزائف الإنسان المستعمَر، مثلما يحدث في صراع الثيران في أوربا عامة وإسبانيا على الخصوص، حين يتم مخادعة الثور بقطعة قماش حمراء حتى تخور قواه قبل بداية الصراع الحقيقي. وهنا نشير إلى أن الاستعمار قبل أن يبدأ في هذه الأعمال كان قد حضر نفسه جيداً لهذا ومنذ زمن طويل، وذلك حين بدأت حركة الإستشراق في دراسة الفكر العربي الإسلامي خاصة ، والشرقي بصفة عامة، وعرف مواطن الضعف والقوة، فالإستعمار لم يتصرف في طاقاتنا الاجتماعية - كما يقول بن نبي- « إلاّ لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة ، وأدرك منها مواطن الضعف، فسخرنا لما يريد، كصواريخ موجهة، يصيب بها من يشاء؛ فنحن لا نتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها و أقلاماً يكتب بها، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا له بعلمه وجهلنا. والحق أننا لم ندرس بعد الاستعمار دراسة علمية، كما درسنا هو، حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية وحتى الدينية، من حيث نشعر أو لا نشعر»[15]. ومن جانب آخر ركز الاستعمار على محاربة وإضعاف الوازع الديني عند المسلمين ليتحكم فيهم أكثر من الناحية المادية بعدما أضعفهم فكرياً ودينياً « لأنّ الإسلام بما فيه من دوافع للتحرر، وتوطين العزة في نفوس المؤمنين، شكل وعلى امتداد حقب السقوط الحضاري العربي والإسلامي، الحصن الذي حفظ الشخصية الوطنية في هذه البلدان من الذوبان أمام المحاولات المتكررة والمتنوعة للاستعمار، ويعرف الاستعمار أكثر من ذلك، بأن طريق النهضة من جديد لا تكون إلاّ من خلال حلقة أساسية للتحرر والثورة، وشبكة جديدة للعلاقات الاجتماعية، هي الإسلام» . [16]

إنّ فرض الرقابة على الحياة الدينية من طرف الاستعمار لم يكن « إلاّ لعلمه أنّ الدين وحده هو الوسيلة النهائية لتصحيح أخلاق الشعب، الذي فقد في غمار أزمة تاريخه كلّ هم أخلاقي. وإذا كنا نجد اليوم شيئا يدوي في جوانب النفس الإسلامية، فيردها قادرة على تغيير ذاتها، والتخلي عن جمودها، فلن يكون هذا الشيء سوى الإسلام. ولذلك لم تفلت هذه القوة الباعثة من تهجّم الاستعمار، ففرض عليها كل أنواع القيود وأشكال الرقابات، حتى أصبح ميسوراً اليوم عندنا أن تفتح نادياً للميسر أو مقهى، أكثر من أن تفتح مكتبا لتحفيظ القرآن. وأعجب من ذلك أن تجد الإدارة هي التي تعين رجال الدين كالمفتي والإمام، لا طبقاً لمشيئة جماعة المسلمين، بل تبعاً لهوى المستعمرين » [17]. وبنفس الكيفية حاول الاستعمار السيطرة على المدرسة والتعليم، وتحكيم لغة الكم والأرقام لأنّ الرقم أصبح « سلطاناً في المجتمع الفني الآلي الذي قام بأوروبا منذ عام 1900م، وصار الإحصاء لا معقب لحكمه، فليس للفطرة الإنسانية، أعني الضمير الإنساني ذاته، دخل في الحياة الجديدة، شأنه في ذلك شأن مالا يدخل في عداد الأرقام، ولا يقاس بالكميات، وبذلك أصبحت حياة الإنسان مجرد وظيفة تكمل الأرقام، فالآلات هي التي تحرر وتحسب، تسخر الإنسان للانخراط في حركة

أجهزتها ... أما الحاجات الإنسانية العامة، وخاصة حاجات الأرملة واليتيم والشيوخ والمرضى، فهي ليست مربحة، لأن الآلات لا تعرف الحساب الأخلاقي أو التقديرات الميتافيزيقية » [18].

هذا وبالإضافة إلى ما خلفتهُ مرحلة الاستعمار على الشعوب المستعمَرَة، فإنّ مرحلة ما بعد الاستعمار جعلت الغرب يبدو عالمياً على مستوى الوعي الإنساني ما دام قد فرض نفسه على هذا الوعي باستحضاره له دائماً لما خلفه من مشكلات وهموم أرقت التفكير الإنساني العالمي، ومازالت إلى اليوم تدعوه إلى التفكير في حلّها وتجاوزها، مثل مسألة الحدود بين المستعمرات السابقة وغيرها من المسائل. إنّ الحضارة الغربية – إذن- تتميز بالعالمية التي « تكمن في أنّها – ولو عن غير قصد – وضعت على طريق التاريخ شعوباً أقصيت عنه بسيرها في دروب الخرافات والأساطير، وبثت فيها إرادة السير في هذا السبيل، عندما نزعت عنها ما بقي لها من حجب التبطل، وأزالت ما كانت تعيش عليه هذه الشعوب من أوهام ورثتها عن أجداد أسسوا حضارتهم ذات يوم، مثلما كان الأمر مع القدوم الأوروبي إلى العالم الإسلامي» [19]. فالإنسان الأوربي قام من غير قصد بدور (الديناميت) «الذي نسف معسكر الصمت والتأمل والأحلام، وبذلك شعر إنسان ما بعد الموحدين، كما شعر بوذي الصين وبراهمي الهند، بهزة انتفض بعدها مستيقظاً، ليجد نفسه في إطار جديد لم تصنعه يداه، وأمام ضرورتين ملحتين : فهو ملزم – على الرغم من تأخره وانحطاطه – بأن يحافظ على الحد الأدنى من كرامته، وهو أمر يتطلبه الإسلام لجميع معتنقيه، حتى في المجتمعات البدائية في إفريقية الوسطى، وهو ملزم أيضا بأن يضمن لنفسه الحد الأدنى من الحياة، في مجتمع قاس، لا يعول البتة صعلوكاً يعيش على الغارة، أو متزهدا يعيش على صدقات الناس، أو وَلداً محظوظًا يعيش على موارد أسرته، فقد زالت من الوجود كل إمكانيات التبطل منذ ذلك الحين. لقد وجد المسلم أن عليه أن يبحث عن أسلوب في المعيشة يتفق وشرائط الحياة الجديدة، في المجالين: الخلقي وَالاجتماعي »[20].

لقد لاحظ مالك بن نبي أن القرن العشرين تميز عن بقية القرون الأخرى بما حمله من تغيرات رسمت للإنسانية معالم أخرى، فهو القرن الذي هبت فيه أكبر العواصف التاريخية على مصير الإنسانية، وهو القرن الذي سجل الأحزان الكبرى في كل مجالات الحياة. إنّ هذا التوجه الإنساني نحو العالمية بفعل تطور التاريخ وتقدم الإنسانية، والذي كانت العالمية الغربية إحدى أهم أسبابه، لا يعني أن هذه العالمية الغربية عامة والأوروبية خاصة، عالمية موضوعية بالضرورة، حيث يلاحظ بن نبي أن أوروبا التي كانت تريد السيطرة على العالم عن طريق القوة انقلب عليها سحرها وأصبحت مقيدة بقوتها، حيث أن العلم والضمير اللذان كانا سببًا في تقدم أوربا، جعلاها تعيش في تناقض وانفصام بين علمها وضميرها، حيث العلم يدفعها إلى التوحد مع الإنسانية، بينما ضميرها متخلف عن علمها المتطور، ومن هذا سيطرت على الحياة الدولية - مع الأسف الشديد- « إرادة القوة التي لا تفارق حضارة القرن العشرين، فهي قانون للنفسية الغربية، قانون يسجل التأخر الخلقي لإنسان الغرب، حتى كأنه يعيش في القرن التاسع عشر ... فأوربا المدفوعة بصناعتها في العالم .... قد انتكست دائمًا بأخلاقها إلى قاعدة الانطلاق الفكري الذي انطلق منها الاستعمار، فهي تعود دائمًا إلى العنصرية وإلى احتقار الإنسانية»[21].

نستنتج بي الأخير _ مع مالك بن نبي _ أن عالمية الحضارة الغربية ناقصة جداً من حيث البعد الإنساني الحقيقي، ولهذا يمكن أن نحكم عليها بكونها عالمية متمركزة حول ذاتها، تتعامل مع غيرها من شعوب و دول العالم كهوامش وأطراف دون فعالية. وهنا نتوقف عند وصية ابن نبي للإنسانية جمعاء وللإنسان الأفرسيوى عمومًا وللإنسان المسلم خصوصًا، وهي الوصية المتمثلة في وجوب أن يسعى كل واحد من الناس إلى أن « يغزو ميدان " المواطنة العالمية " في عالم كان يعيش فيه منبوذًا تحت ضغط الاستعمار والقابلية للاستعمار، ولكن في مقابل هذا التوقع، أوربا تنطوي على محورها أو تنسحب من العالم لتراوغ الإنسانية التي لم تعد تسيطر عليها. بل يجب أن نبين لها أن أمنها لا يصدر عن القوة، إنما يصدر عن تطور وعيها ليتسع لوجود الآخرين، تطور عبقريتها مع الاتجاهات الراهنة والمصلحة

العليا للإنسانية، ولن تستطيع الإنسانية دخولاً في العهد العالمي مع ما يثقل كاهلها من مركبات نقص موروثة عن الاستعمار والقابلية للاستعمار. وإنّ ممّا يلزم حكام اليوم هو أن يرحموا أنفسهم، ويرحموا كل ما هو إنساني، وذلك بأن يعلموا أن وراء أي انحلال بالغ أملاً لبعث جديد، وتحت أي ستار للقوة ينطوي ضعف كبير يلخص ضعف الإنسانية كلّها. ومهمة الحكم تتطلب كلما تقدم الزمان أسمى الصفات الأخلاقية، فإنّ من يريد أن يحكم اليوم يجب أن تكون لديه - أكثر من أي وقت معنى - روح الداعية إلى الخير، وحنان الأب الرّحيم ». [22]

الهوامش:

1- الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن، ط1،(القاهرة، دار ابن الهيثم، 2005) ص119.

2- نقلا عن: قاسم حجاج، العالمية والعولمة- نحو عالمية تعددية وعولمة إنسانية- الطبعة الأولى(جمعية التراث، القرارة _ غرداية _ الجزائر،2003) ص63.

3- منير شفيق، قضايا التنمية والاستقلال في الصراع الحضاري، ط2 (دار الفكر الإسلامي،1989) ص89،90.

4- BERNARD BADIE : mondialisation, les thèmes du débat. In :cd-rom L'état du monde 1981-1997 ,ed.la découverte. 83،84 نقلا عن قاسم حجاج، المرجع السابق، ص

5- RICHARD RORTY : universalisme moral et tri économique.in http//www.unesco org/ phi web/Fr/2rpu/renco/rorbai.html. .84 نقلا عن قاسم حجاج: المرجع السابق، ص

6- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مالك بن نبي، تر؛ عبد الصبور شاهين، ط1(لبنان: دار الفكر، **1986**)ص122-123.

7- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونج، تر؛ع.الصبور شاهين، ط 2 (دمشق: دار الفكر،1981) ص259،260.

8- مالك بن نبي ، مذكرات شاهد للقرن ، ترجمة عمر كامل مسقاوي ، ط2 (دمشق : دار الفكر، 1984)ص40.

9- بدران بن مسعود بن الحسن ، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري: أنموذج مالك بن نبي، كتاب الأمة ، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية بقطر .ط1(العدد:73) ديسمبر 1999 يناير 2000 – ص 112.

10- المرجع نفسه ، ص 113 .

11- مالك بن نبي: " مجالس دمشق " ط1 (دمشق، دار الفكر 2005) ص 177.

12- المرجع نفسه،ص 178.

13- Malek Ben Nabi, Fondement Métaphysiques de l'humanisme islamique, Abderrahmane Ben Amara, OP.cit, P.P :102-103.

14- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ط 2 (بيروت ، دار النفائس، 1986) ص121.

15- مالك بن نبي : **شروط النهضة** ، تر؛ عمر كامل مسقاوي ، عبد الصبور شاهين ،ط 4 **(** دمشق ، سوريا : دار الفكر1990)ص159.

16- أسعد السحمراني ، المرجع السابق .ص 124،125.

17- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 116.

18- المرجع نفسه، ص129.

19- بدران بن مسعود بن الحسن، المرجع السابق، ص 116.

20- مالك بن نبي المرجع السابق، ص 48.

21- مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الأسيوية في ضوء مؤتمر باندونج، مرجع سابق، ص35، 36.

22- المرجع نفسه، ص266.